

قناة الاستخبار

تلقيتُ منتصف سنة 1990 دعوة جديدة من المركز الرئس لشبكة N.N.C في مدينة اتلانتا بولاية جورجيا لأكون العربي الوحيد الذي يتحدث بين عشرين شخصاً من العالم ، عن مشكلة الحرية والإعلام في العراق ووجدتُ في طيات الدعوة ، اسئلةٌ محددة بعضها يبحث عن اجابة قاطعة عن قضية فرزاد بازوفت الصحفي الإيراني الأصل بريطاني الجنسية الذي أُدين بالتجسس في العراق . ولم أرفض فكرة الذهاب الى اتلانتا إنذاراً ما يعنيني أبعد من موضوع المشاركة في حلقة دراسية مهمة ، كان يفترض ان تعقد في موسكو ، لكن تغييراً حصل في الأسابيع الأخيرة جعل مكان إنعقادها اتلانتا وليس موسكو ، وقد سبق لي أن حضرت في شهر مايس (مايو) من سنة 1989 اللقاء الدولي السنوي للشبكة في المركز الرئيس باتلانتا أيضاً ، الذي افتتح جلساته الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر .. الفلاح المنحدر من جورجيا بعد أن أصبح خطيب منبر بعد خروجه من كرسي الرئاسة ومدافعاً متحمساً عن حقوق الإنسان في العالم.

وحتى ذلك الحين ، لم يكن كثير من السياسيين والإعلاميين في العراق معنيين بنشاط هذه الشبكة ، عدا المساهمة المحدودة في برنامجها الإخباري The Report Wold الذي يلتقط فعاليات من أنحاء العالم ليعيد بثها على شبكته المركزية ، وكانت المساهمة العراقية متقطعة وغير منتظمة . في اتلانتا التقيت Turner Ted مؤسس الشبكة ورئيسها الذي كان قد اشتهر من قبل في إنتاج فيلم ذهب مع الريح والمتزوج من الممثلة جين فوندا وصاحب أكبر مزرعة لتربية الجواميس في الولايات الأمريكية الجنوبية ، الذي طرح عليّ أول مرة فكرة السماح بإدخال بث N.N.C إلى العراق عبر منظومة تغطي وزارات الخارجية والدفاع والإعلام والمراكز الإدارية المهمة الى جانب الفنادق الكبرى مقابل اشتراك سنوي تؤول موارده لصالح الشبكة ، ولم أقفل الباب على المقترح ، لا بل إنني وجدته جذاباً، وسيكون عليّ إقناع الجالسين في بغداد بجاذبية الفكرة.

في تلك اللحظة ، أردت الإمساك بدوافع الاهتمام الاستثنائي بالعراق وقلت له ساخراً: هل انتب جاد بما تقوله عن طلب دفع اشتراك سنوي مقابل السماح بإدخال بثكم الى العراق ..؟ إنني أشعر ان الواجب ان نطلب منكم منحنا بثاً مجانياً وتسهيلات خاصة للعراق .. إذا لم نذهب بعيداً لحد طلب أجور عن السماح لكم بما تطلب .

وهنا صاحت الانسة Sheeffon منسقة العلاقات الدولية :لقد استمعت الى أغرب طلب من نوعه في حياتي..

كنت أعرف أن العراق هو أشبه بصندوق مغلق ، وأن أي انفتاح على العالم الخارجي هو تحول نوعي في درجة الاتصال بـ (الأخر) .. كنا مثل الصين المقفلة ولكن بحجم أصغر .. أي انفتاح هو إنجاز مهما بدا صغيراً.

ولم ينته الامر بالحوار الذي جرى في صالة فندق (OMNI وسط مدينة اتلانتا ، فقد ارسلت ادارة الشبكة وفداً يضم Pike Sidney رئيس البرامج الدولية الخاصة Ciccone Roland مستشار شؤون الشرق الاوسط وافريقيا في الشبكة الى بغداد لمتابعة الامر . في تلك الأثناء كنت قد طلبت بصورة عاجلة تشغيل صحن تسلّم الإشارات التلفزيونية البعيدة الذي كان متروكاً بدون تشغيل في بناية الإذاعة والتلفزيون في الصالحية ببغداد ، واسنعت بخبرة الدكتور علي المشاط ، الذي كان يدير فعالية مركز الفضاء الوطني ووجدته يضع أمامي خياراً واحداً : إنك تستطيع أن تلتقط ما يبث على القمر السوفيتي SPUTNIK ... وفعلاً صار بث موسكو وأفغانستان أمامي في الظهيرة والمساء ، ووجدتُ أمامي بث N.N.C في الفترات الصباحية المبكرة ، حتى أن هذا البث كان يفوتني عندما التحق بمكتبي في الإذاعة والتلفزيون متأخراً إلى فترة الضحى .

لم يخطر ببالي أن هذه الشبكة ستصبح أحد أبرز قنوات الإتصال والإستخبار خلال أزمة سياسية عسكرية طاحنة تنتهي إلى حرب أقرب ما تكون إلى الحرب الكونية الثالثة .

طل وفد N.N.C الذي حل ببغداد متمسكاً بحق الحصول على واردات عن السماح بتسلم البث ، بعد ان أوضح لنا ان البث صار يغطي العراق منذ مطلع 1990 ، لكن هذا البث سيستمر مفتوحاً لمدة ستة أشهر ، ثم يصبح مغلقاً Scramble بعد ذلك ، بحيث لا يجري تسلّم إشارته بعدئذٍ إلا بموجب مفتاح خاص Code .

وعشية الثاني من آب (أغسطس) ، كانت هناك بضع نقاط في بغداد لإلتقاط بث الشبكة التلفزيونية الأمريكية ، تخضع لعملية مراقبة وتحليل ، مع هاجس دائم بان الأمريكان سيتخذون من هذه القناة وسيلة مزدوجة لتحقيق هدفين : الأول التأثير على المعنويات وخاصة في دائرة صنع القرار العراقي عبر بث أخبار مفخّمة عن قدرات الطرف الآخر وبث روح التيئيس ، والثاني تمرير معلومات خاطئة بقصد تحويل الانتباه والأشغال والتعمية ، ومع ذلك كانت ثمة صفقة ، يعرف الطرفان أنها ذات حدين على كل منهما ، فتحتملماً معاً خسائرهما المتقابلة عند بدء الحرب .

أجرت الشبكة استبدالاً لمراسلها عندما طلب البنتاغون من المراسلين الأمريكان مغادرة بغداد عشية 15 / كانون الثاني (يناير) 1991 ، فسحبت

Holliman John كبير معلقها وهو المراسل نفسه الذي أصدر بعد انتهاء الحرب كتاباً مشتركاً مع منتج الشبكة Wiener Robert .. آنذاك التحق ببغداد المراسل الجديد Arnet Peter البالغ الخامسة والخمسين من العمر الحامل جواز سفر نيوزلندي ، الذي أخفى في العراق معلومات عن حياته وأظهر أخرى ، فقد ردد انه عمل عشر سنوات مراسلاً لوكالة P A للأخبار في حرب فيتنام .. وأخفى انه كان منذ ذلك الحين على معرفة قوية بالجنرال Schwartzkopf Norman حين التقيا اول مرة في أحراش فيتنام .

وصار Arnet Peter بيتر ارنيت مراسل الشبكة في بغداد ، أهم مصادر تسرب المعلومات ، فقد كان اول مبنز بث لقطات تلفزيونية لبغداد تحت الموجة الأولى للقصف الجوي والصاروخي .. ثم توافرت له في الاسبوع الاول للحرب فرصة التجوال الحرب في شوارع بغداد ليحدد أثار القصف وأماكنه وردود فعل سكان بغداد عليه ، قبل ان يتنبه مرافقوه الى ما كانوا يعتقدون أنها إشارات كان يمررها عبر الهاتف المرتبط بالأقمار الصناعية الذي نصبه في فندق الرشيد ، بما في ذلك المعلومات التي جمعها بعد نقله الى مقر مؤقت يوم الاثنين 28 / 1 / 1991 ليجري لقاءً تلفزيونياً مع صدام حسين . وجاءت الملاحظة الاولى التي أبدتها امام الرئيس : ان طرقات بغداد التي عبر فيها ليصل الى مكان صدام كانت مظلمة تماماً بسبب الهجمات التي تعرضت لها محطات توليد الطاقة الكهربائية .

فعلق صدام : إن الضياء يبيغ من الظلام ..

وشعر بعدئذ أن المراسل كان يبحث عن اجابات تسد فراغاً في المعلومات التي يحتاجها الطرف الآخر . مثل : كم طائرة ذهبت الى ايران ، وهل ستعود ، وما الذي تسبب في بقعة النفط ، وما آثار الغارات على المفاعل النووي العراقي ؟..

عند الصباح كان قد اعد المقابلة للثب ، فأجرى اتصالات هاتفية لم تكن تخضع للمراقبة بعد تدمير شبكة الاتصالات الدولية في بغداد . وكانت لديه فرصة ليمرر وصفاً للمكان الذي نقل اليه بسيارات رئاسية ، أعقبها بتقرير عن بناية قصر المؤتمرات الذي خمن من خلال مراقبته اليومية عبر فندق الرشيد ان هناك شخصيات مهمة تدخل اليه وتخرج منه .. ممهداً بذلك لتصديق معلومات حصلت عليها لاحقاً للمخابرات الامريكية عن استخدام قصر المؤتمرات لعقد اجتماع للقيادة العراقية مع المبعوث السوفيتي يفيغيني بريماكوف ، في الوقت الذي ظلت الشكوك تدور فيه حول احتمال وجود جهاز بيث اشارات تحدد الامكنة مع شخصيات دخلت الى فندق الرشيد المقابل لقصر المؤتمرات حيث وقع هجوم صاروخي مكثف في الوقت الذي عقد فيه اجتماع القيادة العراقية مع المبعوث السوفياتي بريماكوف ، وقد تكون الاشارات أعطيت قبل ساعتين من القصف ، وهي المدة التي استغرقها بث الاشارات ، وستلمها ، ثم تحليلها ، وإصدار الأمر بتوجيه الضربة الصاروخية الى المكان الذي جمعت بث الإشارات وسيلة للمخابرات الامريكية في تحديد الامكنة ، إذ ان الليبيين يتحدثون عن جهاز كشفه خبراءهم مع خبراء رؤس مساعدين يعتقدون ان آخر غربي زار القذافي كان قد تركه في منزل الرئيس الليبي ليطلق اشارات تدل على مكانه . وذكر Woodward Bob في كتابه (Viel The) ان وليم كيسي المدير الأسبق للمخابرات الأمريكية اعترف باستخدام هذا الاسلوب في تحديد الامكنة ، وقال خاطفو رجل الدين البريطاني Wait Terry في لبنان انه كان يحمل معه جهازاً يطلق اشارات من هذا النوع لتحديد مواقع مقارن خاطفي الرهائن الغربيين .

وذكر المراسل نفسه انه مرر معلومات ذات صفة عسكرية الى مقر لوكالة المخابرات المركزية A I C في ولاية Virginia ، وهو يدافع عن نفسه ضد الذين اتهموه بمساعدة العراق وعرض وجهة نظره .

وكشف في محاضرة منشورة بعد سنة على انتهاء الحرب انه أرسل يوم 7 / 2 / 1991 داخل احدى أدوات التصوير مخططاً للمكان الذي احتجز فيه Smon Bob مع طاقم شبكة S B C التلفزيونية . الذين سبق ان أسرتهم القوات العراقية على الحدود السعودية وتضمن المخطط رسماً لمنطقة الكرامة وتأشيراً لمقر اعتقد انه مكان احتجازهم .

حين اخذه مرافقه الى حافة جسر الأحرار من جهة منطقة الصالحية لمعاينة الدمار الذي أصاب دور المدنيين من السكان ، قد وصفاً لمعاناتهم : " انهم ضحايا مدنيون كل مشكلتهم انهم يسكنون على بعد مئات الأمتار من مواقع عسكرية مهمة " . وكانت تلك الإشارة كافية لتصويب إجداثيات المنطقة . وتصحيح الهدف المطلوب اصابته ، وهو بلا شك مبنى الإذاعة والتلفزيون . الذي تعرض بعد 72 ساعة لقصف مدمر شامل .

ولم ينفه ARNET ترميرر معلومات في الحوارات المفتوحة التيان يجريها عبر جهاز الهاتف المرتبط بالأقمار الصناعية ، قبل بث رسالته التلفزيونية اليومية الى المقر الرئيس في " اتلاننتا " بمعونة مقر تقوية مؤقت اقيم في الطابق الثامن من فندق " فيلادلفيا " في قلب العاصمة الأردنية بعد ان استقر بعمان فريق يتغير بعض أعضائه دورياً ويتخذ من فندق الاردن انتركونتننتال مقراً له .. وكان من بين الاتصالات التي أجراها ARNET ، أكثر من مكالمة ارتبط

بها عبر اتلانتا مع خطيبته التي تسكن مدينة (القدس) ، واستخدم في مخاطبتها عبارات مبهمة محمل اشارات متفقاً عليها .. وكانت القدس اول مدينة غيرا مريكية يزورها بعد الحرب ، وفشل في الحصول على سمة دخول عراقية لخطيبته التي تعمل في التلفزيون الإسرائيلي – فجاء بغداد عندئذ مع ابنته من مطلقة السابقة في الذكرى السنوية الاولى للحرب .

كان اقتراب N . N . C من العراق قد جرى قبيل الثاني من آب 1990 – في وقت كانت شبكات امريكية اخرى قد سبقتها مثل C . B . N و S . B . C – وبعد الثاني من آب 1990 ومع انفتاح ساحة كبيرة للهدام الإعلامي بين العراق من جهة والولايات المتحدة وحليفاتها الغربيات من جهة اخرى . والتقت رغبة القيادة العراقية في هذه اللحظة مع النزوع غير المحدود الذي أظهرته شبكة N . N . C في اقامة مركز شبه دائم ببغداد ، إذ ان العراق اراد ان يفتح قناة مباشرة مع العالم من خلال هذه الشبكة ، وأرادت إدارة N . N . C ان تنفرد بهذا الامتياز . وعلى الرغم من ال حظر غير المعلن من شبكة الانتلسات على العراق الذي تراكمت عليه فواتير غير مسددة منذ سنة 1988 ، وهو امر حدد من مستوى الانتشار العراقي ، إلا ان شبكة N . N . C أقامت فوراً مقرها في عمان ، وتوسطت المدير العام للإذاعة والتلفزيون الأردني المهندس راضي الخص ، واتصلت بي كمدير عام للإذاعة والتلفزيون في العراق لتأمين بث يمر من عمان عبر شبكة الميكروويف التي تربط العراق بالأردن ، ليعبر من هناك الى المقر الرئيسي في اتلانتا جنوب الولايات المتحدة . وزاد عدد النقاط التي تلتقط بث الشبكة ببغداد ، وكانت قد توافرت للعراق عندئذ فرصة البث المباشر لنشاطات الرئيس صدام حسين ، بما فيها أحاديثه ورسائله الموجهة الى الرأي العام الامريكي والاروبي .

وجرى تنسيق يومي لربط بث الشبكة مع تلفزيون العراق بعد ان اضاف ترجمة انكليزية مكتوبة على البيانات الاكثر اهمية التي درج الى إذاعتها مذيع التلفزيون مقدار مراد الذي اكتسب شهرة عالمية كبيرة ، وصار الامريكان يسمونه بالناطق الرسمي العراقي ، وأثارت اناقته الرئيس الامريكي جورج بوش الذي كشف ضمناً انه يتابع بدقة كلم ا كان يصدر من بغداد عبره ذه الشبكة ، إذ نرّ خاطب الناطق باسم البيت الابيض مارلين فيزوتر خلال احد مؤتمراته الصحفية : انك لا تبدو باناقة الناطق العراقي الذي يظهر دائماً واضعاً مندبلاً أنيقاً في جيب سترته العلوي ..

ولم تكن تلك هي الإشارة الوحيدة على ان الرئيس الامريكي حريص على مراقبة احاديث الرئيس صدام حسين والبيانات العراقية ، نفقد كان قادة التحالف المعادي للعراق هم الآخرون يدمنون على هذه المراقبة سواء في الرياض او القاهرة او لندن او باريس ، وقد صدرت عنهم سلسلة مواقف وتصريحات كانت رد فعل لما يشاهدونه على شاشة التلفزيون عبر شبكة N . N . C التي تمكنت في وقت مبكر من الوصول ببثها الى 105 دولة من دول العالم . وسنجد بعد خمسة أشهر على انتهاء حرب الخليج ، ان شبكة N . N . C لعبت دوراً مثيراً في مكان آخر من العالم ، عندما يسرت للرئيس بوش وأجهزة المخابرات الامريكية متابعة حية من موسكو للإنتقال الفاشل ضد الرئيس السوفيتي ميخائيل غورباتشوف ووضع عدداً من السياسيين السوفييت في صورة الموقف الامريكي بحث صارت صلة الوصل الصاعدة والنازلة ، بعد ان كانت قد اخترقت الجدار السوفيتي قبل أربع سنوات على الأقل عندما غدت اول شبكة تلفزيونية امريكية تحظى بافتتاح مقر دائم في موسكو .

وبنت لها شبكة علاقات داخل الإدارات السوفيتية مكنتها لاحقاً من الوصول بكاميراتهما الى مواقع الاحداث الساخنة . وفي بغداد تبدلت فرق الشبكة ، بعد ان توقف إطلاق النار ، وعاد ارنيت ليكتب قصته في العراق ، وأخذت N . N . C من اهتمام العراقيين اكثر بكثير مما تستحق ، حتى ان اسمها صار لدى بعض الإعلاميين العراقيين شهادة ذات مصداقية لا ترد . تشابه كثيراً النظرة نحو محطة C . B . B خلال الخمسينات من هذا القرن عندما عدّها العراقيون مصدراً موثقاً لا يقبل الرد ، وذهبت احدى الصحف (27 / 3 / 1992) عند إظهار أهمية مناسبة افتتاح رئيس الوزراء لمعرض عن اعادة الإعمار ان أشارت الى ان بين كبار الحضور بعثة لشبكة N . N . C ! . وكأن الشبكة تفتش الأحداث العراقية وتدقق في وقائعها ، وتعطيها مصداقية ما !

وتوهمت الشبكة التلفزيونية ، أيضاً ، عندما افترضت انها تصلح ان تكون قناة لتهديد العراق ، بما يصدر عبرها من رسائل غيرمباشرة ، تفترض ان هناك مسؤولين عراقيين ، لا عمل لهما ، إلا مراقبة بث الشبكة وأخذ كل ما يمر عبرها كنتاج غير قابل للتأويل . واستمرت اللعبة المزوجة بعد انتهاء الحرب .. وقد تستمر زمناً طويلاً على هذا الإيقاع المتداخل .